الإمام كاشف الغطاء في "بحمدون"

الشيخ د. جعفر المهاجر

بتاريخ٢٢ من شهر نيسان ١٩٥٤م ، التأمَ في بلدة "بحمدون" اللبنانيّة مؤتمرُ طاولة مستديرة ، دَعَتْ إليه جمعيةٌ أميركيّةٌ ، سمّتْ نفسها "**جمعيةُ أصدقاء الشرق الأوسط في أميركا**" . ليلتقي فيه خمسون مدعوّاً ، نصفهم من المسلمين ، والنصف الثاني مسيحيّون . للتداول في " القِيَم المُثلى المُشترَكَة بين الإسلام والمسيحيّة " . وكان الإمام كاشف الغطاء المَدعوّ الشيعيّ الوحيد إليه . ومع أنّه لم يُلبِّ الدعوةَ شخصيّاً ، فإنّني سمحتُ لنفسي بأن أضع لهذه الدراسة عنواناً يشي بأنّه قد حضره بالفعل . ذلك أنّه بالطريقة البارعة والشُّجاعة التي أخرج فيها أُطروحته على الشّعار الذي انعقد تحته المؤتمر قد ترك التأثيرَ الأقوى على أعماله . فكان باستنكافه عن الحضور الشخصي ، الذي قد يُفهم منه موافقته المبدأيّة على شعاره وأغراضه وأهليّة الجهة الدّاعية ، إلى جانب الأُطروحة المُتعدّدة الجوانب التي واجه بها المؤتمر ومُنظّميه . ، كلّ ذلك جعل منه (الحاضرَ) الأقوى في المؤتمر. بحيث أدّى إلى انفراط عقده وإفشال مقاصده ، بعد أن انكشفتْ حقيقتُها الخبيئة تحت شعاره الزّائف .

الحَدَثُ إجمالاً ، ما كان منه من جانب الإمام ، وما كان منه من جانب الجهة الدّاعية ، يطرحُ أسئلةً جمّة . لابدّ من مُعالجتها واحداً واحداً . وهذا ما نرمي إليه في هذه الدّراسة .

ولكن ممّا يجدُرُ بنا ملاحظتُه في مطلع بحثنا ، أنّ النشاطَ البالغَ والمُنظَّمَ الذي بذله الإمام في وجه هذا المؤتمر ، كان آخر عملٍ كبيرٍ قام به قُبيل وفاته بعد ثلاثة أشهر (ت:١٣٧٣/١٢/١٨هـ/١٩٥٤/٧/١٩م) . فكأنّه قد امتصّ آخرَ قطرة من الجُهد في جسده الواهن تحت وطأة السنّ العالية والمرض .

(١) في الجهة الدّاعية

أشرنا فيما فات إلى أنّ الجهة التي دعتْ إلى المؤتمر هي جمعيّةٌ أميركيّة سمّتْ نفسها "**جمعيّة أصدقاء الشرق الأوسط في أميركا**" . وذلك بشخص نائب رئيسها التنفيذي كارلند إيفانز هوبكنز. هو الذي وقّعَ كتاب الدعوة المُوجّه إلى الإمام ، المُؤرّخ بـ ١٥/٣/١٩٥٤م . أي قبل شهر وسبعة أيّام فقط من التاريخ العتيد لبدء أعمال المؤتمر.

ولقد بحثنا مليّاً في كلّ المظانّ عمّا يمكن أن يزيدنا معرفةً بهذه الجمعيّة المزعومة وبنائب رئيسها التنفيذي ، فلم نخرج بطائل . ممّا يدعو إلى الظّنّ أنّها (جمعيّةٌ) موجودةٌ على الورق فقط . وأنّها إنما اصطُنعت لغايةٍ مُحدّدة ، هي أن تكون عنواناً وباباً لحِراكٍ ما ، سياسيّ على الأرجح . خصوصاً إذا لاحظنا أنّها حُمّلتْ اسماً عريضاً " **أصدقاء الشرق الأوسط** " ، يمكن أن يُلبَسَ أيّ لَبوس يؤدّي إلى التباس حقيقة المقاصد والأغراض . وليس هذا ومثله بالأمر الغريب على أرباب الهيئات الاستعماريّة ، التي دأبتْ وما تزال على تغطية حقيقة مقاصدها بعناوين مُنافقة .

واستناداً إلى سيرةٍ طويلةٍ لعناوين مؤسّساتٍ كثيرة غربيّة أو مَرعيّة من قِبَل الغرب ، الأمرُ الجامعُ بينها أنّها تعمل على تلطيف تأثير الأعمال العنيفة والفظائع التي مهّدت أو رافقت اغتصاب "فلسطين" ، التي كانت ما تزال طريّةً في الأذهان ، وبالتالي التمهيد لقبول الكيان الصهيوني تدريجيّاً لدى المُحيط البشري الذي يُطوّقه . ، هذه السيرةُ تشهدُ حتى اليوم أنّ المقصودَ دائماً من عبارة " الشرق الأوسط " ليس إلا تغييب صفة " العربيّة " أو " الإسلاميّة " ، التي تترك "إسرائيل" خارجَها . في حين أنّ مُصطلَح "الشرق الأوسط" ، وهو اسمٌ من منظورٍ استعماريٍّ على كلّ حال ، يُفسِحُ مكاناً رحباً للكيان الغاصب . وسنرى أن الإمام قد التقط بذكاءٍ هذه الحيلة ، وتجاهلَ ببراعةٍ كلّ اللغة الوعظيّة التي حفلت بها رسالةُ الدعوة ، والتي تصطنعُ تمويهاً الغيرةَ على الأخلاق ، والتّحرُّر من "المُغريات الدُّنيويّة والأغراض المادّيّة " . ونفذَ مُباشرةً ، وهو الخبيرُ بصنوف

أحابيل الاستعمار ، إلى ما تدُلُّ إليه الدلائل من حقيقة المقاصد ، الخبيئة خلفَ مُختلَف التمويهات .

(٢) في شعار المؤتمروأُطروحته

سطرَ السيّد كارلند رسالةَ دعوةٍ مبسوطةً إلى الإمام . بيّن في مطلعها "أنّ الإسلامَ والمسيحيّةَ لهما أهدافٌ واحدةٌ في كثيرٍ من النواحي . كما أنّ لهاتين الديانتين أعداءٌ مُشتركون ، من بينها المُغريات الدُّنيويّةُ والأغراضُ المادّيةُ ثم الشيوعيّة" . ثم رأيناه يُطنِبُ في استعراض "القِيَم الرُّوحيّة في كلتا الديانتيَن" ، وشيءٌ عن برنامج المؤتمر ، و"أنّ الكثيرين من الشخصيّات المسيحيّة والإسلاميّة البارزة من جميع أنحاء العالَم قد قبلوا دعوتنا" . ويستشهد بعددٍ من الشخصيّات ، من بينهم الدكتور محمد فاضل الجمالي ، المعروف جيّداً في الأوساط الشيعيّة في "العراق" ، وأيضاً في الأوساط الأميركيّة ، حيث تلقّى الدراسة في "جامعة كولومبيا في "نيويورك" ، على سلامة " **موقف جمعيّة أصدقاء الشرق الأوسط الأميركيّة وأهدافها السّامية** " . ولا يفوتُنا أن نُلاحظَ التهديدَ المُبطّن والفظّ في ختام الرسالة بأن رفضه الدعوة لن يكون ذا جدوى ، لأن البديلَ عنه في هذه الحالة جاهز.

هكذا تدرّجتْ الرسالة من لغةٍ وعظيّة في بدايتها : " المُغريات الدنيويّة ، والأغراض المادّيّة ، ثم الشيوعيّة " . إلى ذلك التهديد المُبطّن المُفتقر إلى اللياقة . مروراً بالفقرتيَن اللتين ترميان إلى رفعِ استيحاش الإمام من تلبية دعوةٍ صادرةٍ عن جهةٍ لا يعرفها ولا يعرف سابقةً لها في هذا المضمار.

وهكذا يبدو لنا بكامل الوضوح ، أنّ الرسالةَ قد صيغتْ بدهاءٍ كبير . بحيث تتركُ الإمامَ أمامَ خِيارٍ وحيدٍ . فهي استندتْ إلى المنظومة الأخلاقيّة للمُخاطَب بها " المُغريات الدنيويّة والأغراض المادّيّة " ، إلى ضرورة مُقارعة الإلحاد المُتمثّل في الشيوعيّة . وهذه في رأس وظيفة عالم الدين المسلم ، كما هو واضح . ثم ثنّتْ بما يُوهم بأنه إذ يرفضُ تلبيةَ الدعوة سيكونُ في موقعٍ شاذٍ ، لأن "الكثيرين من الشخصيّات المسيحيّة والإسلاميّة البارزة من جميع أنحاء العالَم قد

قبلوا دعوتنا " . وختمتْ بذلك التهديد الذي لامعنى له ، والذي أقلُّ ما يُقال فيه أنّ صاحبه لا يعرفُ من هو الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء .

(٣) في رمزيّة ومغزى المكان

عنوان هذه الفقرة أوحى لنا به الإمامُ نفسُه ، في العنوان الذي اختاره لأُطروحته (المُثُل العُليا في الإسلام لا في **بحمدون**) . مع أنّ مُشكلته الأساسيّة هي مع المؤتمر والدّاعين إليه وما يُضمرون وشعارهم المطروح ، وليس مع مكان انعقاد المؤتمر. الأمر الذي يستدعي أن يقولَ مثلاً : "المُثُل العُليا في الإسلام لا في مؤتمركم" ، أو أيّ شيءٍ من هذا القبيل .

ثم أنّ السيّد هوبكنز يقول في كتاب الدعوة المُوجّه للإمام :" حرصتُ على أن يجري عقدُ هذا المؤتمرفي أحد المصايف المُنعزلة ، في جوٍّ هادئٍ ، بعيدٍ عن ضوضاء الصحافة " . وهذا تسويغٌ غير مُقنع للعارف . لأن "بحمدون" تكاد تكون لقُربها من "بيروت" بمثابة ضاحيةٍ لها . ولن تمنع وُصولَ ما سمّاه بـ " ضوضاء الصحافة " .

إذن فهناك في ذهن الأمام وأيضاً في ذهن السيّد هوبكنز نمطٌ من الرمزيّة كامنةٌ في المكان ، ركّز الأوّلُ عليه هجومَهُ ، وحاول أن يُسوّغه الثاني . وربما يكون هوبكنز قد خشي تحفُّظ الشيخ على اختيار بلدٍ لبناني ليكون مرتعاً للمؤتمر. لِما لـ "لبنان" من خصوصيّةٍ عند المسلمين من غير أبنائه ، باعتبار علاقته الخاصة بالغرب ، وأنّ أقوى وأكثر المؤسسات التربويّة والتبشيريّة الغربيّة تعمل فيه ومنه . بل إنّ " لبنان " السياسي هو مشروعٌ غربي ، جرت هندسته على قياس بعض أبنائه . وخصوصيّة "بحمدون" في ذلك الآن أنها كانت مصيفَ الطبقة الغنيّة والميسورة من أهل "بيروت" ، ومركزاً لمرابع اللهو البرئ وغير البرئ . وهذا اعتبارٌ آخَر ربما يكون هوبكنز قد رمى إليه حينما حاول تسويغ الأمرللشيخ. وربما كانت هناك أسبابٌ واعتباراتٌ أُخرى لِما رصدناه عند الاثنين ، قد خفيتْ علينا لتقادُم الزمان . ولكننا نُشير إلى أنّنا لاحظنا ، بعد مراجعة إرشيف الصحف اللبنانيّة الصادرة بتاريخ انعقاد المؤتمر ، أنها لم تذكرالمؤتمر ولم تعلّق كبير أهميّةٍ على انعقاده . ليس لأن أولياءَه

قد ابتعدوا به عن "ضوضاء الصحافة" ، وإنما لسببٍ آخَرٍ سنقفُ عليه في محلّه الآتي .

(٤) لماذا الإمام كاشف الغطاء وليس غير؟

كلّ ما عالجناه في فقرةٍ سابقةٍ يطرحُ ضمناً هذا التساؤل . على الرغم من أنه سؤالٌ عن النوايا وما تُكنّه النفوس . وهذا تساؤلٌ تنطوي معالجةُ الجواب عنه على مُخاطرةٍ منهجيّة . لغياب مقاييس الصواب والخطأ فيه . ومع ذلك فإننا نرى أنه لا بدّ من طرحه كتساؤل ، ومن ثمّ محاولةُ استبيان ملامح الجواب عنه ، استناداً إلى ما نعرفه من الظرف العام للفترة ، ومن الحوافز والأغراض المُحرّكة لدى كلٍّ من المُخاطِب (الجهة الدّاعيّة) والمُخاطَب (الإمام) .

ومن المعلوم ، أولاً ، أنّ الإمامَ كان في ذلك الأوان أعلى المراجع الدينيين الشيعة من العرب شأناً ، ومن أوفرهم عنايةً بالشأن العام للأُمّة .

ثم أنّه كان صاحبَ تاريخٍ حافلٍ في مقارعة الغرب وأطماعه في بلاد المسلمين وثرواتها ، من موقع الإدراك العميق لخطره ومخاطره . ومن ذلك أنه كان من علماء "النجف" الذين نفروا للجهاد يوم دخل العسكر البريطاني "العراق" غازياً ، ورابطَ وقاتلَ في محور"الكوت" . "المدائن" . ولكنه صدفَ عن تأييد ثورة "النجف" وثورة العشرين التي تلتها على الاحتلال البريطاني . لأنه ، بحسب رأيه واجتهاده ، رأى أنهما عملَين طائشيَن ، يفتقران إلى الإعداد المُناسب . وأنهما ستمنحان العدوّ الذريعةَ للتنكيل بالمسلمين ، وإحكام قبضته على "العراق" كما حصل بالفعل . ولكنه وقف موقفاً حازماً مُستنكراً أوّلَ مُعاهدةٍ عسكريّةٍ عقدها بلدٌ مسلمٌ مع الولايات المتحدة الأميركيّة، هي المُعاهدة التي عقدها معها محمد علي جناح ، بطلُ تأسيس دولة "باكستان" . إلى المُناظَرة السياسيّة الشجاعة والشاملة التي عقدها مع السفير البريطاني ، يوم زاره في مدرسته المعروفة في "النجف" . ثم المناظرة الأُخرى المُماثلة مع السفير الأميركي (نصّهما في كتابه الشهير "مُحاورة الإمام مع السفيرين") .

إذن ، فكلُّ السّيرة الشخصيّة للإمام تدلُّ على أنّه كان صلْبَ العود ، شديدَ المِراس ، ذا شجاعةٍ أدبيّةٍ فائقة ، واطلاعٍ كافٍ على حقائق الأوضاع السياسيّة ، لا يتردّدُ أبداً في اتخاذ الموقف الذي يراه صائباً مع الصديق والعدوّ . وما من ريبٍ في أنّ الجهةَ الدّاعيةَ ومَن وراءها كانوا يعرفون كلَّ ذلك جيّداً . هذا كلّهُ يُعزّزُ التساؤل عن سبب دعوته هو بالذات .

نظنُّ أنّ الجواب كامنٌ في أمرين :

. الأوّل : أنّ مكانتَه العالية جعلتْ من تجاهله في لقاءٍ يجمعُ ذوي الشأن من معارف رجال الدين المسيحيين وعلماء المسلمين أمراً غير معقول . ربما فكّرتْ الجهة الداعية في أنّ ذلك سيكون عملاً استفزازيّاً سيُقابله الإمام بحملة شعواء على المُبادرة . وإذا صحّ ما قاله السيّد هوبكنزفي رسالته للإمام :" إنّ الكثيرين من الشخصيّات الإسلاميّة والمسيحيّة قد قبلوا دعوتنا " ، فهذا يعني أن دعوته أتتْ مُتأخّرة عن دعوة غيره . ممّا قد يدلُّ على أنّها كانت موضعَ بحثٍ وأخذٍ ورَدٍّ بين أرباب الجهة الدّاعية . أو أنّها قد أُخّرتْ عمداً .

. الثاني : إن الجهة الدّاعية قد وضعتْ أعمالَ المؤتمر العتيد تحت سقفٍ صارمٍ لا ينقصه الوُضوح . هو شأنان : أخلاقي سمّته "المغريات الدنيويّة والأغراض المادّيّة" . وعقيدي هو الإلحاد المُتمثّل عندها في الشيوعيّة المادّيّة . وهذا أمران من صُلبُ وظيفة عالِم الدين المسلم . فضلاً عن أنّ الموقف الديني الإسلاميّ منهما معروفُ ونهائيّ ، ولا مجال فيه للاجتهاد وإعمال الفكر . فكأنّهم بذلك قد اعتقدوا أنّهم بذلك قد غلّوا يده إن حضرعن الخوض في حديثٍ غيره ممّا لا يُحبّون وممّا تشهدُ عليه السّيرةُ المُستمرّة للإمام . وإن لم يحضر فيكون قد كفاهم مؤنته بنفسه .

ولكنّ الأمر الذي نظنّ أنّه لم يخطر لهم ببال أنّ الإمام اتخذ بين ذلك سبيلاً هو موقفٌ ومبادرة . وهذا هو مربطُ الفرس في مُطالعتنا . الذي مهّدنا له في كلّ ماسبق .

(٥)

أمّا الموقفُ فهو الامتناعُ عن المشاركة بنفسه في أعمال المؤتمر. الغايةُ من ذلك ، كما قُلنا فيما فات ونؤكّدُ الآن ، أن لا يُفهم من الحضور القبولُ المبدأي بشعار المؤتمر ، وبأغراضه الحقيقيّة الخبيئة .

وأمّا المُبادرة فهي ما ضمّنه كتابَه (المُثُل العُليا في الإسلام لا في بحمدون) . آخرُ ما سطرته يده قبل أن يلقى ربَّه .

والحقيقةُ أنّ كتاب ، أو إذا نحن أخذنا بعين الاعتبار الحجم ، رسالة (المُثُل العُليا . . . .) هي مطالعةٌ إتهاميّةٌ شاملة بوجه الولايات المتحدة الأميركيّة لِما جنتهُ يداها بحق الأُمّة الإسلاميّة والشعوب العربيّة ، وخصوصاً اغتصابُ "فلسطين" وتشريدُ أهلها . ومن الواضح أنّ هذا الاتهام هو جوابٌ غير مباشر على اللغة الوعظية الكاذبة والغيرة التغرير على الدين وأهله اللذين تضمّنتهما مشروع المؤتمر المُعلَن . يقول (أعني هذا الجواب) أن ليس من حقّ الخاطئة أن تدعو وتحثّ على الشرف . بل عليها قبلُ أن تتوبَ وتُصلح .

المُلفتُ في الرسالة . المُطالَعَة أمران :

. الأول : بيانُه أنّ الظلمَ كامنٌ في أصل تكوين الولايات المتحدة ، التي قام كيانُها على قاعدة اغتصاب الأرض من أهلها الأصليين وإبادتهم بمُختلف الوسائل ، وأيضاً على قاعدة العبيد الأفارقة المخطوفون عنوةً من بلادهم بمئات الألوف ليكونوا أرقّاء يعملون تحت أسوأ الظروف .

. الثاني : أنّها هي المسؤولُ الأساسيّ عن اغتصاب فلسطين لمصلحة المشروع الصهيوني . وبالتالي عن تشريد مئات الأُلوف من أهلها العرب .

هاتان المقولتان هما اليوم من الأُمور المعروفة المُتدَوَلَة في الأدبيّات السياسيّة العالَميّة . ولكنهما في ذلك الأوان ، أي في خمسينات القرن الماضي ، لم تكونا بهذا المستوى من الانتشار في الأدبيّات السياسيّة بالعربيّة . في ذلك الأوان كانت الدولتان الاستعماريّتان "فرنسا" و "انكلترا" هما الحاملتان والحاميتان علناً للواء الصهيونيّة . ولم يبرز دورُ الولايات المتحدة في هذا إلا بعد النكبة

الثانية سنة ١٩٧٦م . حيث أصبحتْ المُزوّدَ الأساسيَّ بالمال والسلاح والدعم السياسي المُطلَق للغاصبين .

إذن ، فما هذه الإشارة العاجلة ، التي اختصرنا فيها رسالةَ (المُثُل العليا) في مقولتين اثنتين ، إلا إطلالةٌ لا تُغني أبداً عن قراءة الرسالة نفسها كما خطّتها يدُ مصنفها ، بوصفها عملاً تاريخياً رياديّاً بكلّ ما للكلمة من معنى . فضحَ التغريرَ في عقد المؤتمر . وكشفَ المستورَ آنذاك من دور الولايات المتحدة في اغتصاب "فلسطين" وتشريد أهلها . الأمرُ الذي يدلُّ على اطلاعٍ واسعٍ لمصنفها على الخفايا والخبايا ، ومقدرةٍ مدهشةٍ على التحليل السياسي . وما ندري من أين اكتسبَ الإمامُ كلّ ذلك ، خصوصاً في ظلّ بؤس الإعلام السياسي في وطنه .

(٦)

مهما يكن ، فقد عكفَ الإمامُ على كتابة مُطالعته الشاملة ، فأتمّها وطُبعتْ ووصلتْ إلى مقصدها ، ما بين تاريخ صدور الدعوة إلى المؤتمر في ١٩٥٤/٣/١٥م ، وبُعيد تاريخ انعقاده في ١٩٥٤/٤/٢٤م . وهذا زمنٌ قياسيٌّ ، خصوصاً إذا أخذنا بالاعتبار تقنيّات الطباعة اليدويّة البطيئة يومذاك ، من تنضيدٍ وطباعةٍ وتصحيفٍ وجَمْع . ممّا يصلحُ أن يكون محلاً للعَجَب أيضاً .

المهمّ أنّ الإمام أرسل عدداً وافياً من نُسَخ رسالته المطبوعة مع "أحد أصدقائه من فضلاء النجف" إلى "بيروت" ، فدخلها هذا بتاريخ ١٩٥٤/٤/٢٤م، أي بعد انعقاد المؤتمر بيومين ، حيث نشرها بين أعضاء المؤتمر وقادة الحركة الفكريّة في لبنان من مُختلف المذاهب ورؤساء الأحزاب السياسيّة . الأمرُ الذي أحدثَ آثاراً سريعة وحاسمة . فأعلن اثنان من أبرز أعضاء المؤتمر انسحابَهما منه ، هما سعيد رمضان رئيس "الإخوان المسلمين " في "القدس" ، والشيخ مصطفى السُّباعي مؤسّس "الأخوان المسلمين" في "سورية" الذي عقد مؤتمراً صحافيّاً في البرلمان اللبناني ، أدان فيه المؤتمر. كما تناولته أربعُ صُحُفٍ لبنانيّةٍ

سيّارةٍ بما يُؤيّدُ مطالعةَ الرسالة . ممّا أدّى إلى انهياره انهياراً تامّاً ، بحيث أنّه لم يصدر عنه بيانٌ ختاميّ ، كما تقتضي أبسطُ الأُصول .

(٧)

واليوم حيث نتحلّقُ حول ذكرى هذا الكبير ، نتذكّرُ فيه العالِمَ الجليلَ الواسعَ الاطلاع في مختلف الشؤون ، المسكونَ بالقلق على مستقبل الأُمّة ، الخفيرَ الحاضرَ دائماً في المَرَابط المخوفة . لم يهُن ولم يسكن إلى دعة ، كانت طوعَ إرادته لو شاء .

—